ضريح سيدي الحرفي بمدينة دلس

دراسة وصفية تحليلية

أ. كردين سهيلة

جامعة الدكتور يحيى فارس . المدية

1) <u>الموقع الجغرافي</u> :

يقع ضريح سيدي الحرفي في قلب القصبة السفلى وهو موجود ضمن ركن زاوية على معبر ثانوي طويل باتجاه شمال جنوب يربط المستشفى العسكري بضريح سيدي البخاري والمعبر الذي يقطعه بالاتجاه الشرقي الغربي يربط سيدي الحرفي بالطريق الوطني رقم 24 . يحد الضريح من الشمال ومن الغرب منشآت سكنية ومن الجنوب والشرق ممرات للراجلين .

2)- لمحة تاريخية عن موقع الضريح :

يذكر بأن المكان الأصلي لضريح سيدي الحرفي كان بالقصبة العليا، ذلك أن الفرنسيون هم الذين نقلوه إلى القصبة السفلى إثر أعمالهم المنجزة عام 1844 لتوسيع الطريق الوطني رقم 24 والذي كان يحاذي الضريح[1]، إلا أننا نتوقف هنا لنقول بأن هذا الضريح لم يشار إليه في المخطط الذي يعود إلى سنة 1844 (أنظر المخطط رقم 1الخاص بأهم الأضرحة والمنشآت المعمارية الموجودة بمدينة دلس والمأخوذة سنة 1844م)، إنما وجوده مثبت منذ سنة 1845 (أنظر المخطط المنجز سنة 1845) والذي يوضح نقل الضريح من القصبة العليا (مكانه الأصلي) إلى القصبة السفلى مكانه الحالي، كما نضيف عن الذاكرة الذهنية لأحد السكان القدامى لمدينة دلس، أن القبر قد نقل إلى مكانه الحالي أين توجد مدرسة قرآنية وهذا يعني أن القبر أقدم من المبنى الموجود فيه حاليا والخاص بضريح سيدي الحرفي[2].

أما عن شخصية ونسب هذا الولي الصالح فليس لدينا أية معلومات تفيدنا لإدراج سيرته الذاتية فكل ما وجد في الأرشيف الوطني من مخطوط، يذكر اسم الحاج العلامة علي الحرفي[3] وليس محمد الحرفي وهنا لم نتمكن من معرفة هل كان هذا الاسم يعود إلى شخصية واحدة أو أن الاسم الأول حرف أو أن الشخصيتان مختلفتان.....؟ كما تضيف الباحثة الدكتورة شايد في كتابها، أنه ربما يكون سيدي الحرفي قاضي حنفي؟ لم تكن شخصية هذا الولي الصالح وحدها محل الالتباس لدينا إنما التاريخ 1313 المشار إليه في الناقشة الموجودة فوق باب المدخل الرئيسي للضريح (أنظر الصورة رقم 1) كان هو الآخر

[1] Saoudi Chaid (y), Dellys aux mille temps, ed.2008, Dutell, p102.

[2] D'après ,Bennamen qui tient cette information de Amar ben saber le propriétaire de la medersa.

مصدر إشكالية، فلو افترضنا أن هذا التاريخ هجري كما هو معتاد على الناقشات الجنائزية الإسلامية فإنه يوافق السنة الميلادية (1895-1896م) غير أنها لا يمكن أن نعتبرها سنة تأسيس هذا الضريح لأنه موجود في المخطط الذي يعود إلى سنة 1845 أي أقدم بكثير من هذا التاريخ وهنا تفترض الباحثة شايد في كتابها أن سنة تأسيسه ربما تكون 1313 ميلادية أي أن تأسيس هذا الضريح يأتي بعد ضريح سيدي موسى الذي وجد بالقصبة العليا في فترة العصور الوسطى وتبقى هذه فرضية[3].

الصورة رقم 1* نقيشة تحمل اسم سيدي الحرفي *

مضمون الناقشة: هذا مقام الولي الصالح والقطب الناصح محمد سيدي الحرفي أدركنا الله عنايته 1313.

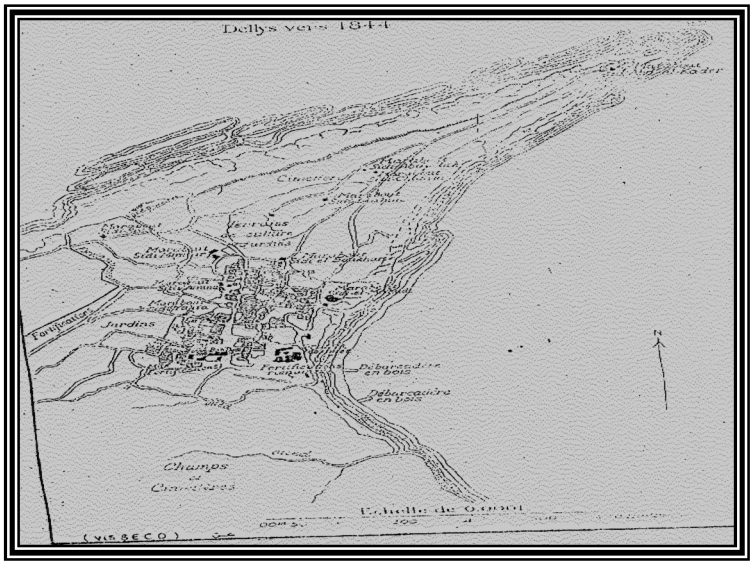

***المخطط رقم 1 خريطة تعود إلى أهم منشآت وأضرحة مدينة دلس 1844 م ***

[3] Archives nationales, Ahkam chariaa. , Boite 126/127, n°107/32, année 1234/1819.

3)-الدراسة الوصفية للضريح :

أ) الوصف الخارجي للضريح :_هو عبارة عن منشأ معماري مكون من طابق أرضي وطابق علوي فوقه سقف مائل ذو شكل معين أنظر الصورة رقم 2.

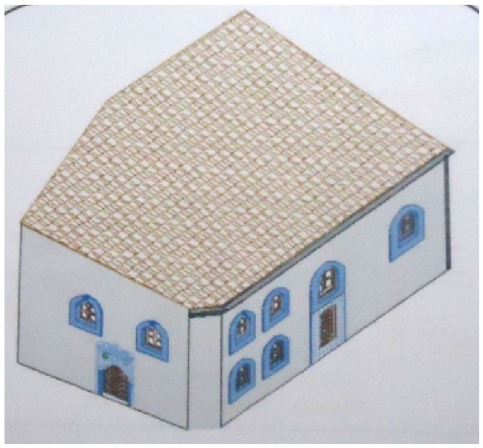

الصورة رقم 2 الوصف الخارجي لضريح سيدي الحرفي بتصرف

أ*المدخل: تنوعت المداخل في العمارة الإسلامية ولقيت عناية خاصة سواء من ناحية متانتها أو من حيث زخرفتها، يغلب على الأبواب الشكل المستطيل، وهي بمصرع أو مصراعين، كما تختلف من حيث أهميتها ووظيفتها، فهناك الأبواب الرئيسية والفرعية وغالبا ما ارتفعت أطرها وعقودها وحناياها الغائرة المحرابية الصورة رقم 03.

المدخل الرئيسي موجود في الناحية الجنوبية للمعلم وهو مزين بباب خشبي ذو لون أخضر ذو مصرعين إطاره الخارجي مزين ببلاطات خزفية .(أنظر الصورة رقم 3أ وب).

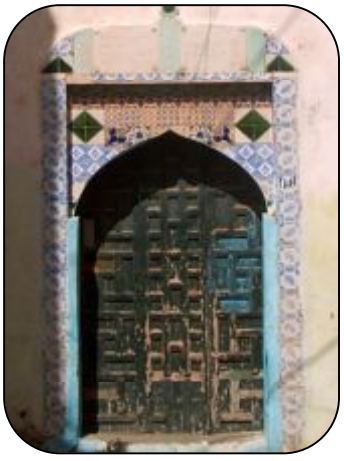

***الصورة رقم 3: * أ الباب الغربي**

ب* الباب الشرقي

***النوافذ** : عدد النوافذ ثمانية بنفس المقاسات وتأخذ شكل أقواس قوطية انظر الصورة رقم 4 وهي موزعة كالتالي : أنظرالصورة رقم 1.

- في الناحية الجنوبية نجد نافذتان تطل على السدة موجودة فوق المدخل الرئيسي للضريح.

- من الناحية الشرقية نجد أربعة نوافذ على شكل أزواج متوازية من الناحية اليرى للواجهة الشرقية.

- نافذتان متجاورتان واحدة منها موجودة فوق بوابة صغيرة تؤدي إلى المحراب وكلتا النافذتين تطلان على قاعة الصلاة .وتعتبر النوافذ من أهم العناصر المعمارية، فلا يقتصر دورها على الإضاءة فقط بل تقوم بتهوية الغرفة وطرد الرطوبة التي تمتاز بها المنطقة[4]، وجاءت نوافذ الضريح متوسطة الحجم تقريبا، يحيط بها أطار خشبي وهي مسيجة بشباك حديدي متقاطع، ويتماسك قضبان الشباك بواسطة مكعبات ذات أضلاع منتظمة.

الصورة رقم 4 نموذج عن الضريح قبل وبعد عملية ترميم النوافذ

ب)-الوصف الداخلي للضريح :

نلج إلى داخل الضريح عبر دهليز ضيق في الناحية اليمنى منه نجد بيت الوضوء المزود بمرحاضين ومغسل وبئر أما من الناحية اليسرى ففي الطابق التحت أرضي نجد غرفة واسعة نصل إليها عبر دهليز آخر، في وسط هذه الأخيرة نجد عمود مزين بتاج كورنتي كما نجد في الزاوية اليسرى، تابوت الولي الصالح سيدي الحرفي المنجز من الخشب الملون بالأحمر والأخضر (أنظر الصورة رقم 5) يقابل هذا الأخير المحراب المزين ببلاطات خزفية، أما عن الطابق الأول فنصل إليه عبر درج خشبي وهو مكان السدة التي تحمل في وسطها درابيز وتطل على القاعة السفلى (أنظر الصورة رقم 6).

[4] علي خلاصي، **قصبة الجزائر**-القلعة وقصر الداي، رسالة دكتوراه، ج3، جامعة الجزائر، 1982، ص334.

الصورة رقم*5*لتابوت الولي الصالح سيدي الحرفي الصورة رقم* 6*السدة الخاصة بضريح سيدي الحرفي

5)-الأهمية التي تبرز تصنيفه :

أ) من الناحية الأثرية

يعد ضريح سيدي الحرفي جزءا لا يتجزأ من القصبة السفلى، فشكله المعماري الخارجي لا يشبه الأضرحة المزينة بقبة كما هو معتاد في التركيبة المعمارية للأضرحة إنما يأخذ نفس شكل المنازل الخاصة بالقصبة وهي ميزة انفردت بها أضرحة قصبة مدينة دلس، من الناحية الأثرية عند قيام المهندسين المعماريين بأعمال الترميم التي استدعت إلى نزع السقف وكذا الطبقات التي تغطي الجدران من أجل سد الشقوق العميقة حيث وجدوا أن هناك آثارا لمستوى السقف القديم ،الذي كان موجود أسفل بكثير مما هو عليه وقد رفع هذا الأخير حتما لبناء السدة التي لم تكن موجودة من قبل .

أما عن النمط الذي ينتمي إليه هذا الضريح فهو محلي عثماني، محلي كون الضريح شبيه بمنازل القصبة وعثماني من حيث البلاطات المزينة له وهي إثني عشر نوعا، كما جاء في كتاب الدكتورة شايد، نذكر منها :بلاطات خزفية ذات المثلث الأخضر (أنظر الصورة رقم7)، بلاطات ذات المثلث الأزرق – (أنظر الصورة رقم 7)، بلاطات ذات القرنفلة الزرقاء وبلاطات أخرى ذات الأشكال المختلفة –(أنظر الصورة رقم 8) .

الصورة رقم 07 بلاطات المثلث الأخضر والأزرق

بلاطات مزينة للجدران الخارجية والداخلية للضريح –

ب)من الناحية التاريخية:

يعتبر ضريح سيدي الحرفي أحد الأقطاب الناصعة لولاية بومرداس فهو شاهد مادي على مشاركة المنطقة في توطيد وتقوية الثقافة الجزائرية، وقد لعب الضريح دورا هاما في تحفيز الشعب للقيام بالثورات الشعبية ضد المستعمر الفرنسي، كما ساهم في الحفاظ على الهوية الجزائرية المسلمة من خلال تعليم اللغة العربية وكذا الأسس القرآنية وهذا دافع قوي كي يصنف هذا الضريح ضمن قائمة الجرد الإضافي للحفاظ على الهوية الوطني.

العناصر المعمارية والزخرفية للضريح :

1)- **المحراب**:محراب ضريح سيدي محمد الحرفي مزين بالبلاطات الخزفية (انظر الصورة رقم 09)، ويتواجد بجدار القبلة وهذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد أن الغرض منه هو اتخاذه للصلاة أو للدعاء تبركا بالولي الصالح سيدي الحرفي.

الصورة رقم 09 - محراب الضريح

الصورة رقم 10 – عمود مضلع

الأعمدة:

إستعمل المسلمون الأعمدة كعنصر معماري وزخرفي في آن واحد، وكانت مدينة الجزائر في العهد العثماني تستورد أبدان الأعمدة من إيطاليا، فمنها الأسطوانية والمضلعة والحلزونية، وغالبا ما تكون مزينة بتجويف مستطيل أو بالتضليع المكور أو بالشكل الحلزوني، وكل هذه النماذج تدل على براعة الصانع[5]. وقد وجد عمود واحد في ضريح سيدي محمد الحرفي حيث إحتل منتصف قاعة الصلاة وهو من النوع الكورنثي القديم، ذو شكل مثمن، مزين بأوراق نبات الأقنتة (أنظر الصورة رقم 10).

التيجان:

يعتبر التاج من العناصر المعمارية والزخرفية معا، ترتكز عليها العقود مباشرة، محمولة على بدن العمود، والهدف الأساسي منها تجميل المحيط الموضوعة فيه، إضافة إلى الدور المعماري الذي تؤديه لتحملها الضغط والثقل، وقد عرفت الجزائر العثمانية عدة أنواع من التيجان أغلبها منحدرمن التاج الكورنثي المعروف في العهد البيزنطي[6].

ويظهر في عمارة ضريح سيدي الحرفي تاج واحد، حيث صنع بمواد مختلفة مزين بأوراق نبات الأقنتة.

(الصورة 11) *تاج كورنتي *

العقود:

يعد العقد من العناصر المعمارية التي استعملها المعماري المسلم لغرض رفع علو المبنى إضافة إلى الاتساع الأفقي، فنجد هذا العقد بعدة أشكال والأكثر انتشارا هو العقد المنكسر المتجاوز وعليه يمكن القول بأن العقد عنصر معماري مقوس يعتمد على نقطة ارتكاز واحدة أو أكثر[7].

وقد وجدنا خلال العمل الميداني عدت أنواع من العقود، وظفت كحوامل للسقف لضريح سيدي الحرفي، كما كان لها دور زخرفي في الخزائن الجدارية.(أنظر الصور رقم:12)

الصورة رقم 12نموذج من عقود الضريح

[5] Marcais(g),l'art en Algérie, imprimerie algérienne, Algérie,1900,p.828.

[6] يحي الوزيري،المرجع السابق،ج2،ص.61.

[7] محمود عبد العزيز لعرج،المرجع السابق،ص.17.

البلاطات الخزفية :

رغم استخدامه الواسع في المباني العامة والخاصة، إلا أنه لم يتم العثور بعد على ورشات صناعته بالجزائر، ويرجح بعض الباحثين عدم وجود مصانع لهذه المادة لكونها كانت توفر لها عن طريق الشراء أو الإتاوات والضرائب والهدايا[8].

كانت البلاطات الخزفية من أهم العناصر التي تستوردها الجزائر من إيطاليا وإسبانيا وتونس إلى جانب هولندا وتركيا[9]، وقد استعملت في تكسية الجدران، إضافة إلى الاعتماد عليها في تكسية وزخرفة أقسام هامة وعناصر معمارية متنوعة بالمباني العسكرية والمدنية والدينية، ويثبت ذلك ما لاحظناه في المنشآت المدنية والدينية مثل القصور (قصر الداي وقصر مصطفى باشا)، إضافة إلى المساجد والأضرحة من خلال زيارتنا الميدانية لها.

الصورة رقم -13-بلاطات خزفية مزينة لضريح سيدي الحرفي

شاع استخدام الزليج بالعمارة الجزائرية خلال الحكم العثماني وذلك لتعدد مزاياه خاصة الزخرفية منها، والذي وضف في كسوة الجدران وفي أطر الأبواب والنوافذ، والخزائن الجدارية وفي حنية المحراب (انظر الصورة 13)، والقباب خاصة على مستوى الرقبة من الجهة الداخلية، كما أستعمل أيضا في زخرفة واجهات المباني على شكل أفاريز وبدرجة أقل على الوجهات المطلة على الشوارع[10].

العناصر الزخرفية:

تعتبر الطبيعة مصدر إلهام للفنان كونها منبعا يستمد منها مواضيعه الزخرفية، مع إضافة لمسته الخاصة بحيث لا تتنافى مع خبرته الأكاديمية والقيم الدينية والاجتماعية. أجمعت الدراسات الخاصة بالفن العثماني بأن الفنان في العهد العثماني بالجزائر قد تأثر بعدة أساليب فنية، أهمها الأسلوب العثماني الخالص والأسلوب العثماني المتأثر بالأسلوب الأوربي المحض مع التمسك والاحتفاظ ببعض العناصر

[8] فريد الشافعي،تاعمارة العربية في مصر الإسلامية،الهيئة المصرية العامة، مصر، 1980،ص.148.

[9] marcais (g),lart….,opcit,p.141.

[10] محمود عبد العزيز لعرج، **المرجع السابق**، ص.149.

المحلية السابقة للعهد العثماني، ويمكن اعتبار هذا العصر من أرقى العصور من حيث التواصل الفني والثراء الحضاري المتنوع.

الزخرفة النباتية:

إستخدمت العناصر النباتية المختلفة بكثرة في العصور الإسلامية المختلفة، وأخذت مكانتها منذ البداية كعنصر هام من عناصر الزخرفة الإسلامية، إلا أنها تأثرت بانصراف المسلمين عن تقليد الطبيعة تقليدا مطلقا فاستخدموا الفروع والأوراق لتشكيل زخارف تمتاز بالتكرار والتقابل والتناظر، غلب عليها مبدأ التجريد والتحوير والرمزية وهي من أهم خصائص الفن الإسلامي[11].تعتبر العناصر النباتية من المواضيع الرئيسية التي أحسن الفنان المسلم رسمها وتوزيعها وتنسيقها والتأليف بينها، وقد أتقن العثمانيون استخدام العناصر النباتية ووفقوا فيها توفيقا كبيرا، فقد رسموا الأشجار والسيقان والأوراق والأزهار والثمار بعد أن حوروها، ولم يكن ذلك التحوير ناتجا عن ضعف في قوة الملاحظة لدى الفنان المسلم أو عجز في إمكاناته الفنية على الرسم، إنما كانت نتيجة عن اتجاه جديد في الفن لم يكن موجود من قبل، فالفن عند الفنان المسلم ليس هدفه خدمة الدين والعقيدة وإنما كان دنيويا[12].بالتنوع الشديد في عناصرها، بحيث تتكون من أزهار بأنواعها المختلفة البسيطة والمركبة مثل زهرة شقائق النعمان وزهرة القرنفل والورود، فضلا عن وجود أشجار كأشجار السرو والنخيل وعناقيد العنب وأوراقه، وأنواع من الأوراق النباتية البسيطة والمركبة، وكثيرا ما شكلت هذه العناصر أساليب زخرفية إسلامية خالصة متمثلة في الأرابيسك.

الأزهار:

تعتبر الأزهار عنصرا أساسيا في زخرفة المباني الدينية والمدنية، فقد استعملت في نطاق واسع في تركيا ثم انتشرت هذه الميزة إلى الأقاليم التابعة للدولة العثمانية، ومنها الجزائر، حيث طغى استعمالها بعمارة الأضرحة وتتمثل في: الصورة رقم 14(زهرة القرنفل)

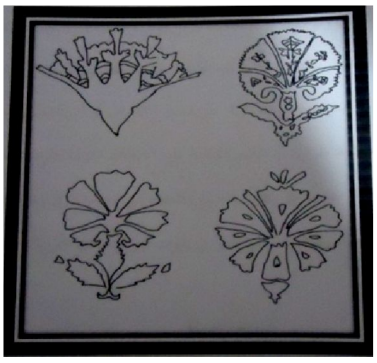

(أنظر الشكل رقم:، الصورة رقم:14)

زهرة القرنفل:

[11] محمود حامد الحسيني، الأبسلة العثمانية بمدينة القاهرة (1517-1798)، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988، ص100.

[12] محمد عبد العزيز مرزوق، الفن الإسلامي، تاريخه وخصائصه، بغداد، 1965، ض 181.

أما زهرة القرنفل فموطنها الأصلي مجهول ومن المحتمل أن يكون الصين **أو** إيران، ويسميها الأتراك KARANFIL فأحبوها إلى درجة جعلتهم يمثلونها على الكثير من منتجاتهم الفنية، ولقد زرعوا منها أنواعا كثيرة، ففي مدينة اسطنبول فقط خلال القرن الثامن عشر زرع أكثر من مائتي نوع من هذه الزهرة[13]**،و**قد استعملت بكثرة في زخرفة البلاطات الخزفية في ضريح سيدي الحرفي.

*** الصورة رقم -15- زخرفة هندسية**

الزخرفة الهندسية:عرفت الزخرفة الهندسية انتشارا واسعا في الفن الإسلامي، ويرجع السبب في ذلك إلى موقف الفقهاء في تحريم تصوير الكائنات الحية، مما دفع الفنانين المسلمين نحو استخدام الأشكال الهندسية وتطويرها إلى أن وصلوا إلى مرتبة لم يسبقهم إليها أحد من قبل، وقد وظفها الفنان في زخرفة المباني والتحف بمختلف أنواعها وموادها، حيث أخذت شكل دوائر ومضلعات وأشكال نجمية.[14] تحتل الزخرفة الهندسية المرتبة الثانية بعد الزخرفة النباتية بالضريح المدروس، ونفذت إما على القطع الخزفية أو على بعض العناصر المعمارية مثل مصارع الأبواب أو أثاث الضريح مثل التابوت، وهي على أشكال خطوط متوازية أو منكسرة منفذة على البلاطات الخزفية بألوان مختلفة، كما جاءت هذه الزخارف بأشكال متنوعة مثل الطبق النجمي والنجوم التي استعملت في زخرفة المربعات الخزفية وأطر الأبواب ومصارعها، والمضلعات التي تظهر في تابوت ضريح سيدي الحرفي.

الزخرفة الرمزية:

الهلال:يعتبر الهلال في الإسلام رمزا للانبعاث والقيامة، أما مرافقته بنجمة على بعض شواهد القبور المغربية فهو رمز للجنة، وزينت به العمائر الدينية ويظهر خاصة في القبة والمئذنة والمداخل، وقد ظهر كشعار في الفن الإسلامي في مرحلة مبكرة. والهلال هو رمز الدولة الإسلامية.

شاع استعماله في العهد العثماني لاسيما في الأعلام والرايات وحتى في العمارة الدينية والمدنية، وأعلى القباب والمآذن، وأحيانا يكون وحده وفي بعض المرات ترافقه نجمة، والأرجح أن استعماله يرجع إلى أن

[13] Arseven (c.e.); **Op.cit**, p.88.

[14] محمد عبد العزيز مرزوق.....المرجع السابق،ص.75.

التوقيت لإسلامي يعتمد على الشهر القمري، وقد يكون تعبيرا عن ظهور الإسلام وإبعاد الشرك بالله، أستعمل أيضا في الفنون التطبيقية كعنصر لتزين الخيول الملكية وهذا يعود إلى أصول ساسانية[15].

استعمل الهلال في العمارة الإسلامية للأسباب عدة من بينها التوقيت حيث يقول عز وجل:**[ويسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج]***، كما استعمل في العمارة القديمة خاصة في شواهد القبور. ويظهر الهلال في هذه الأضرحة في نطاق محدود، حيث نجده في إطار مدخل غرفة ضريح سيدي على الحرفي (أنظر الصورة رقم:16).

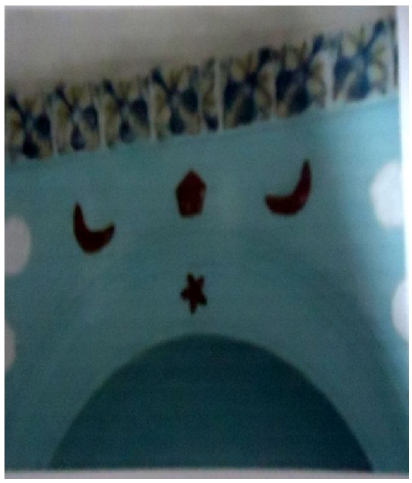

الصورة رقم -16-زخرفة رمزية

النجمة:

هي عنصر هندسي ذو بعد رمزي[16]، لها أشكال عديدة مثل التي تتكون من خمسة رؤوس، والإقبال عليها من طرف الفنان مرتبط بمجموعة من الاعتقادات كإبعادها للشيطان والحماية من العواصف، وربما كان القصد من استعمالها التقرب إلى شكل الزهرة التي لم تتفتح نواتها.

كما أن السكان كانوا يهتدون بالنجوم لقوله تعالى: **[وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر وقد فصلنا الآيات لقوم يعلمون]***. وتظهر النجمة في كل من الواجهتين الرئيسيتين الشمالية والغربية، من ضريح سيدي الحرفي .

---

[15] صالح مصطفى لمعي .....المرجع السابق،ص 25-26.

*سورة البقرة : الآية 189.

[16] عفيف بهنسي، **الفن الإسلامي**، ط1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1986، ص.101.

* سورة الأنعام: الآية 97.